من أسرار التعبير في سورة الغاشية

دراسة بلاغية تحليلية

د . أحمد عبد الجواد عكاشه

سورة الغاشية

هى السورة الثامنة والثمانون فى ترتيب القرآن الكريم ، وسميت فى المصاحف[١] وكتب التفسير - سورة العاشية - وكذلك عنونها الترمذى فى جامعه .

وفى موطأ الإمام مالك سميت : هل أتاك حديث الغاشية[٢]

يروى الإمام مالك أن الضحاك بن قيس سأل النعمان بن بشير . بم كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ فى يوم الجمعة ؟ قال : هل أتاك حديث الغاشية ، وهذا ظاهر فى التسمية لأن السائل سأل عن ما يقرأ مع سورة الجمعة فالمسئول عنه السورة الثانية وبذلك عنونها البخارى فى صحيحه وربما سميت سورة هل أتاك بدون كلمة : حديث الغاشية وهذا العنوان الذى صرح به ابن عطية فى تفسيره .

---

(١) عمدة القارى شرح صحيح البخارى للعينى المتوفى ٨٥٥ هـ ١٩/٢٨٨ ط المنيرية

(٢) الموطأ للامام مالك ١/١١١ باب كتاب الجمعة دار الكتاب المصرى

وهى مكية بالإجماع هى السابعة والستون فى عد نزول السور (٢) نزلت بعد سورة الذاريات ، قبل سورة الكهف ليس فيها ناسخ ولا منسوخ .

عدد آياتها :

ست وعشرون آية .

قال العيني : هى ثلاثمائة وواحد وثلاثون حرفا ، واثنتان وتسعون كلمة وست وعشرون آية

سر مناسبتها لما قبلها :

لقد اتصلت السورة بآخر سورة الأعلى اتصالا وثيقا ذلك لأنه لما ذكر قوله تعالى « سيذكر من يخشى ويتجنبها الأشقى الذى يصلى النار الكبرى »(٢) حتى قوله والآخرة خير وأبقى فى المؤمن والكافر ، والنار والجنة ، إجمالا فصل ذلك فى هذه السورة فبسط صفة النار والجنة مستندة إلى أهل كل منهما على نمط ماهنالك (٣)

ولذا قال هنا ، عاملة ناصبة فى مقابلة الأشقى هناك ، وقال هنا تصلى نارا حامية إلى قوله لايسمن ، فى مقابلة يصلى النار الكبرى هناك .

---

(١) الاتقان للسيوطى ١/٣٣، ٢/٢٨ ط المعرفة

انظر البحر المحيط ٨/٤٦٢ دار الفكر بيروت ، روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى ٣٠/١١٢ دار إحياء التراث

(٢) الأعلى من ١٠ إلى ١٧

(٣) أسرار ترتيب القرآن للسيوطى ص ١٤٩ - ١٥٠ تحقيق عبد القادر عطا ، دار الإعتصام

ولما قال هناك فى الآخرة خير وأبقى ، بسط هنا صفة الجنة أكثر من صفة النار تحقيقا لمعنى الخيرية ، وإنه تعالى ذكر فى الغاشية صفة النار والجنة مفصلة على ترتيب ماذكر فى سورة الأعلى ، ثم زاد الأمر تفصيلا فى سورة الفجر يذكر أسباب عذاب النار فضرب لذلك مثلا بقوم عاد وقوم فرعون « ألم تر كيف فعل ربك »(١)

ولذلك جاء فى الغاشية إنما أنت مذكر ثم ذكر فى الفجر مادة تذكير من كان يتبعهم من الكفار .

غرض السورة :

هذه السورة واحدة من الايقاعات العميقة الهادئة ، الباعثة إلى التأمل والتدبر(٢) وإلى الرجاء والتطلع ، وإلى الخيفة والتوجس ، وإلى عمل الحساب ليوم الحساب .

تطوف بالقلب البشرى فى أمرين مهمين : أمر الآخرة وعالمها الواسع ، ومشاهدها المؤثرة وأمر الوجود العريض المكشوف للنظر ، وآيات الله المبثوثة فى خلائقه المعروضة للجميع .

ثم تذكرهم بعد هذين الأمرين الهائلين بحساب الآخرة ، وسيطرة الله ، وحتمية الرجوع إليه فى نهاية المطاف ، كل ذلك فى أسلوب عميق الإيقاع هادىء ولكنه نافذ رصين .

---

(١) الفجر ٦

(٢) صفوة التفاسير للصابونى ٣/٥١٥ ط مكة المكرمة

(٣) فى ظلال القرآن للشهيد سيد قطب دار الشروق ٦/٣٩٥٢

ولكى نشعر هذه الظلال ونلمس مانيها من أسرار نقرر فى عبارات من خلال التحليل اللغوى البيانى كى نرتشف هذا المذاق الحلو .

بسم الله الرحمن الرحيم

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الغَاشِيَةِ (١) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ (٢) عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ (٣)

دقائق لغوية :

هل : قال الراغب : هل حرف استخبار ، إما على سبيل الاستفهام ، وذلك (١) لايكون من الله عز وجل. قال تعالى : « قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا » (٢)

وإما على التقرير تنبيها أو تبكيتا أو نفيا ، نحو : هل نحس منهم من أحد أو تسمع له (٣) ركزا « هل تعلم له سميا »(٤) هذا على النفى وقوله (هل هذا إلا بشر مثلكم)(٥) (هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام والملائكة)(٦) قيل ذلك تنبيه على قدرة الله .

وقال السيوطى : هل حرف استفهام يطلب به التصديق دون التصور ولا يدخل على منفى ولا شرط ،ولا إن(٧) ولا اسم بعده فعل غالبا ولا عاطف وترد بمعنى قد ، وبمعنى النفى :

---

(١) المفردات فى غريب القرآن للراغب مادة هل ط الحلبى

(٢) الأنعام ١٤٨

(٣) مريم ٩٨ (٤) مريم ٦٥

(٥) الأنبياء ٣ (٦) البقرة ٢١٠

(٧) الاتقان ١/ ٢٢٢ السيوطى ط المعرفة بيروت لبنان

وقال السهيلي في عدم إعمال هل [١] وأصل كل حرف أن يكون عاملا . ولا نجد حرفا لا يعمل إلا حرفا دخل على جملة قد عمل بعضها في بعض وسبق إليها عمل الابتداء أو نحوه .

وكان الحرف داخلا لمعنى في الجملة لا لمعنى في اسم مفرد فاكتفى بالعامل السابق قبل هذا الحرف وهو الابتداء أو نحوه ، وذلك نحو هل زيد قائم؟ ونحو أعمرو خارج ؟ في الاستفهام فإن الحرف دخل لمعنى في الجملة ولا يمكن الوقوف عليه ولا يتوهم انقطاع الجملة عنه لأنه حرف مفرد لا يوقف عليه ولو توهم ذلك فيه لعمل في الجملة ليؤكدوا بظهور أثره فيه تعلقه بها ودخوله عليها .

الحديث : كل كلام يبلغ الإنسان من جهة السمع ، أو الوحي في يقظته أو منامه يقال له حديث .

الغاشيـــة : يقال غشيه غشاوة وغشاء ، أتاه إتيان ماقد غشيه أي ستره .

والغشاوة : ماينطلي به الشيء قال تعالى : «وجعل على بصره غشاوة»[٢] وعلى أبصارهم غشاوة[٣] وغشيت موضع كذا أتيته وكنى بذلك عن الجماع يقال غشاها وتغشاها « فلما تغشاها حملت »[٤] ، وكذا الغشيان .

---

(١) نتائج الفكر للسهيلي ص ٧٤ تحقيق د/محمد البنا دار الاعتصام

(٢) الجاثية ٢٣ (٣) البقرة ٧

(٤) الأعراف ١٨٩

والغاشية : كل مايغطى الشيء كغاشية السرج وقوله « أن تأتيهم غاشية »(١) أى نائبة تغشاهم وتحلكهم ؛ وقيل الغاشية فى الأصل محمودة وإنما استعمل لفظها ههنا على نحو قوله تعالى : « لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش(٢) وقوله هل أتاك حديث الغاشية كناية عن القيامة وجمعها غواش .

خاشعة : خشع .الخشوع ، الضراعة وأكثر مايستعمل الخشوع فيما يوجد على الجوارح. والضراعة أكثر ماتستعمل فيما يوجد فى القلب . ولذلك قيل فيما روى إذا ضرع القلب خشعت الجوارح ويقال خشع واختشع وتخشع: رمى ببصره نحو الأرض وغضه وخفض صوته ، والتخشع . تكلف الخشوع والتخشع لله الإخبات والتذلل ، والخاشع من الأرض : الذى تثيره الرياح لسهولته .

ناصبة : نصب الشيء وضعه وضعاً قائماً : كنصب الرمح والبناء والحجر.

والنصيب : الحجارة تنصب على الشيء وجمعه نصائب ونصب ، وكان للعرب حجارة تعبدها وتذبح عليها . «كأنهم إلى نصب يوفضون»(٣)

والنصَب والنصْب : التعب قال « لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا »(٤)

(عاملة ناصبة)

---

(١) يوسف ١٠٧ (٢) الأعراف ٤١

(٣) المعارج ٤٣ (٤) الكهف ٦٢

والنصيب : الحظ المعين « أم لهم نصيب من الملك » (١) ورجع فلان إلى منصبه أى أصله .

التحليل :

بهذا الاستهلال تستفتح السورة التى ترد القلوب إلى الله ، ولتذكرهم بآلائه فى الوجود ؛ وحسابه فى الآخرة وجزائه الأكيد (٢) بهذا الاستفهام الموحى بالعظمة ، الدال على الجلال والقدرة ، الباعث على التشوق والرغبة فى القبول .

وهذا الخطاب هل أتاك الذى يحس فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقع توجيهه إلى شخصه حينما سمع هذه السورة وكأنما يتلقاه أول مرة مباشرة من ربه لشدة حساسية قلبه بخطاب الله سبحانه ، واستحضاره لحقيقة الخطاب ، وشعوره بأنه صادر إليه بلا وسيط حينما سمعته أذناه .

قال ابن أبى حاتم حدثنا على بن محمد الطنافسى حدثنا أبو بكر بن عياش عن أبى إسحاق عن عمر بن ميمون قال : مر النبى صلى الله عليه وسلم على امرأة تقرأ : هل أتاك حديث الغاشية ؟ فقام يستمع ويقول نعم قد جاءنى ... والخطاب عام .

واستفتاح الاستفهام بهل : استفهام خرج عن معناه الأصلى إلى استفهام

---

(١) النساء ٥٣

المفردات فى غريب القرآن ماده حدث ـ عسى ، خشع ، نصب

(٢) انظر فى ظلال القرآن الشهيد سيد قطب ٣٨٩٦/٦ دار الشروق

أريد به التعجب مما فى حيزه ، والتشويق إلى استماعه (١) ، والاشعار بأنه من الأحاديث البديعة ، التى حقها أن تتناقلها الرواة ويتنافس فى تلقنها الوعاة . وهو تحريك نفس السامع إلى تلقى الخبر وقيل : هل بمعنى قد الدالة على التقرير والتقريب ، أى قد جاءك يامحمد حديث الغاشية وقد كشف هذا النقاب أبو حيان فى البحر (٢) قال : هل حرف استفهام فإن دخلت على الجملة الاسمية لم يمكن تأويله بقد ، لأن قد من خواص الفعل فإن دخلت على الفعل فالأكثر أن تأتى للاستفهام المحض ، وقال ابن عباس وقتادة هى بمعنى قد ، قيل لأن الأصل أهل فكأن الهمزة حذفت واجتزى بها فى الاستفهام .

لكن مجال الذوق فى النظم بهل يحرك الوجدان إلى التنبيه ، والغوص فى الموقف والبحث فيه عن وجه الصواب ثم تجد سلسلة من التداعيات والرؤى تثار فى القلب والخاطر (٣) حول هذه الحقيقة وهو شىء غير محض التقرير والتحقيق .

ولعل اختلاف العلماء فى انتقال هذا الاستفهام من معناه إلى معنى آخر ، هل يكون حقيقة أو مجازا مرسلا أو استعارة ؟ يبعث على التطلع والغوص على ماتحمله النصوص وما تستنتج من مستلزمات التراكيب . وإن كان

---

(١) روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى /١١٢٣ دار إحياء التراث تفسير أبو السعود ١٤٨/٩

(٢) البحر المحيط ٢٩٣/٨ الجامع لأحكام القران القرطبى ٢٥/٢٠ دار الكتب بيروت

(٣) انظر دلالات التراكيب ص ٢١٧ د/محمد محمد أبو موسى مكتبه وهبة

الإمام عبد القاهر قد أشار إلى مايمكن أن يكون أصلا لرأى فى باب الاستفهام وهو أنه لم يستعمل فى الانكار ولا فى التقرير ولا فى غيره وإنما استعمل فى التنبيه فهو محض (١) معناه كما قال وعلى المخاطب أن يجد فى التقاط المراد من السياق وحسبه هذا التنبيه .

وعبر بالإتيان لأن الإتيان مجىء بسهولة (٢) ويقال فى الخير وفى الشر وفى الأعيان والأعراض وتعريف ما أضيف إليه حديث بوصفه . الغاشية الذى يقتضى موصوفا لم يذكر هو إبهام لزيادة التشويق إلى بيانه الآتى لتمكن (٣) الخبر فى الذهن كال تمكن .

الغاشية : القيامة (٤) سميت غاشية على وجه الاستعارة التصريحية لشدة وقعها فإذا حصلت لم يجد الناس مفرا من أهوالها ، فكأنها غطاء يغطى عقولهم .

أو الغاشية : الداهية التى تغشى الناس بشدائدها يوم القيامة ، وأصل معنى الداهية : مايفجأ الإنسان فيدهشه من المصائب ، ثم عمت فقيل داهية لكل مصيبة ، وتأنيث الغاشية لتأويلها بالحادثة ولم يستعملوها إلا مؤنثة اللفظ والتأنيث كثير فى نقل الأوصاف إلى الاسمية مثل : الطامة ، والصاخة والقارعة .

---

(١) دلائل الإعجاز ص ٩٤ دار المعرفة بيروت

(٢) انظر المفردات فى غريب القرآن ماده أتى وماده جاء

(٣) تفسير التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٣٠/٢٠٤ ط تونس

(٤) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص ٥٢٥ دار بيروت - تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤/٥٠٣ دار الكتاب المصرى، الجامع لأحكام القرآن القرطبى ٢٠/٢٥ دار الكتاب بيروت

وقيل الغاشية : النار تغشى وجوه الكفار ورواه أبو صالح عن ابن عباس ودليله قوله تعالى «وتغشى وجوههم النار» (١) وإن كان هذا الرأى لم يحظ بالقبول لأن الحديث ليس مختصا بالنار وأهلها بل ناطق بأحوال أهل الجنة أيضا(٢)

وقيل : المراد النفخة الثانية للبعث لأنها تغشى الخلائق .

وجوه يومئذ خاشعة :

إنه يعجل بمشهد العذاب قبل مشهد النعيم ، فهو أقرب إلى جو الغاشية وما تحمل ، فهناك يومئذ وجوه ذليلة متعبة مرهقة ، عملت ونصبت فلم تحمد العمل ولم ترض العاقبه ، ولم تجد إلا الوبال والخسارة فزادت مضضا وإرهاقا ونصبا .

جاء بالوجوه ، مرفوعة على أنها مبتدأ وسوغ الابتداء بالنكرة لوقوعه فى موضع التنويع ، والخبر مابعد والظرف متعلق به ، والتنوين عوض عن جملة أى يوم إذ غشيك .

وجاء بهذه الجملة مفصولة عن سابقتها ؛ لأنها استئناف بيانى جاء جوابا عن سؤال نشأ من الاستفهام التشويقى كأنه قيل من جهته عليه الصلاة والسلام ما أتانى حديثها ماهو ؟ فقيل : وجوه والفصل هنا لشبه كمال

---

(١) ابراهيم ٥٠ روح المعانى للالوسى ٣/١١٢

(٢) تنزيه القرآن عن المطاعن القاضى عبد الجبار ص ٤٦١ ط بيروت دار النهضة الحديثة

الاتصال أو الاستئناف والتعبير بالوجوه عن أصحابها قد وضحه العلماء قال القاضي عبد الجبار رحمه الله مجيبا عن كيف يصح ذلك في الوجوه وذلك من صفات الحي الذي الوجه بعضه ؟ (١)

قال القاضي : إن المراد جملة المرء دون العضو وقد يذكر الوجه ويراد به نفس الشيء كما يقال هذا وجه الأمر ، وهذا مافصله المتأخرون عندما أسندوا هذا التعبير إلى المجاز المرسل .

وإن كنا لم نجد الشريف الرضي يفطن إلى هذا التقسيم ولم يفرق ، بين ماتكون ملابسته المشابهة وبين ماتكون غير المشابهة حيث قال : عقب هذه الآية ، وهذه استعارة والمراد بالوجوه ههنا أرباب الوجوه(٢)

ولعل الشريف لم يقف عند الفروق الدقيقه التي وقف عندها علماء البلاغة حيث اجتهد الإمام عبد القاهر بوعي نافذ أن يوصل هذا التقسيم ويقف على تحديد الاستعارة في أن العلاقة إذا كانت المشابهة .

والمجاز المرسل ما كانت العلاقة بين ما استعمل فيه وما وضع له ملابسة غير المشابهة (٣)

---

(١) المصدر السابق

(٢) تلخيص البيان في مجازات القران للشريف الرضي ص ٣٦٤ تحقيق محمد عبد الغني حسن ط الحلبي

(٣) الايضاح للخطيب القزويني ص ٢٧٠ مطبعة السنة المحمدية ـ أسرار البلاغة للامام عبد القاهر ص ٣٥١ دار المعرفة

والوجوه فى الآية وقعت مجازا مرسلا من إطلاق الجزء على الكل ، وليس كل جزء صالحا لأن يراد به الكل وإنما لابد أن يكون جزءا مهما وأساسيا فى هذا الكل حسب المقام .

فالوجه يطلق على الإنسان فى مقام الشرف والسيادة والنبل وفى مقام دلائل الفرح والحبور وفى إظهار دلائل العبوس والذله والنصب ، ولو وضع جزء غير هذا لما كان النظام كاملا كهذا .

ويومئذ : قُدم على خاشعة وإن كان متعلقا به للاهتمام بذلك اليوم .

وخاشعة خبر عن المبتدأ وهو وجوه ، وخاشعة بمعنى ذليلة كما فى قوله تعالى « وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل » (١) وكقوله « خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة » وكأن فى الخشوع استعارة عن الذلة (٢) ولم يأت بالذل إبتداء لما فى وصفها بالخشوع من الإشارة إلى التهكم وأنها لم تخشع فى وقت ينفع فيه الخشوع .

عاملة ناصبة ، خبران آخران لوجوه ، إذ المراد بها أصحابها . وهذا فيه معنى التعريض والتهكم لأهل الشقاء ، وهى تعمل ماتتعب فيه كجر السلاسل وخوضها فى النار خوض الإبل فى الوحل ، والصعود والهبوط فى تلالها ووهادها .

---

(١) تفسير التحرير والتنوير ٢/ ٢٠٤

(٢) الشورى ٤٥ (٣) القلم ٤٣

(٤) حاشية الشهاب ٨/ ٢٥٢ الكشاف ٤/ ٢٤٦

وقيل عملت فى الدنيا أعمال السوء والتذت بها وتنعمت فهى فى نصب منها فى الآخرة ، وقيل عملت ونصبت فى أعمال لا تجدى عليها فى الآخرة من قوله . وقدمنا إلى ماعملوا من عمل[1] .

قال الحافظ أبو بكر البرقانى حدثنا إبراهيم بن محمد المزكى حدثنا محمد بن إسحاق السراج حدثنا هرون بن عبد الله حدثنا سيار حدثنا جعفر قال : سمعت أبا عمران الجونى يقول مر عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه بدار راهب قال فناداه يا راهب فأشرف قال فجعل عمر ينظر إليه ويبكى فقيل له يا أمير المؤمنين مايبكيك[2] من هذا ؟ قال ذكرت قول الله عز وجل فى كتابه (عاملة ناصبة تصلى نارا حامية) فذاك الذى أبكانى وقرىء عاملة ناصبة على الشتم .

ويجوز فى خاشعة وناصبة إسنادها إلى الوجوه مجاز عقلى علاقته المكانية لأن الوجوه محل ظهور الخشوع والنصب .

تَصْلَى نَاراً حَامِيَةً (٤) تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ (٥)

دقائق لغوية :

تصلى : يقال صلى بالنار وبكذا أى بلى بها ، واصطلى بها وصليت الشاة شويتها وهى مصلية ، وصلها بالنار أى قاس حرها .

ويقال صليت الرجل نارا إذا أدخلته النار وجعلته يصلاها فإن ألقيته

---

(١) الفرقان ٢٣

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤/٣٠٥ دار الكتاب المصرى

فيها إلقاء كأنك تريد الإحراق قلت أصليته بالألف ، والصلاء والصلا ، اسم للوقود (١) .

تسقى : السقى والسقيا أن يعطيه مايشرب ، والإسقاء أن يجعل له ذلك حتى يتناوله كيف شاء والاسقاء أبلغ من السقى لأن الإسقاء هو أن تجعل له مايسقى منه ويشرب . تقول أسقيته نهرا ، قال تعالى « وسقاهم ربهم شرابا طهورا » (٢) « وأسقيناكم ماء فراتا » (٣) ،ويقال للنصيب سَقى وللأرض التى تسقى سِقى ، والاستسقاء طلب السقى .

عانية : أنى . وآن الشىء قرب إناه أى وقته (حميم آن) (٤) بلغ إناه فى شدة الحر ، ومنه (من عين آنية) .

جملة تصلى ناراً حامية : خبر رابع عن المبتدأ وهو وجوه ، ويجوز أن تكون الجملة حالا وذكر (نارا) بعد تصلى لزيادة التهويل والإرهاب ، ووصف النار بحامية لإفادة تجاوز حرها المقدار المعروف لأن الحمى من لوازم ماهية النار فلما وصفت بحامية كان دالا على شدة الحمى . قال تعالى : « نار الله الموقدة » (٥) .

ويجوز أن تكون هذه الجملة ومابعدها من الجملتين إستئنافا مهينا لتفاصيل أحوالها .

---

(١) المفردات مادة صلى ص ٢٨٥ ولسان العرب مادة صلى ومادة سقى فى المفردات ص ٢٣٦

(٢) الانسان ٢١ (٣) المرسلات ٢٧

(٤) الرحمن ٤٤ (٥) الهمزة ٦

وقراءة الجمهور تصلى بفتح التاء أى يصيبها صلى النار .

وقرأ أبو عمرو ويعقوب وأبو بكر تصلى بضم التاء ، وقرأ خارجة تصلى بفتح الصاد وتشديد اللام مع ضم التاء ، للمبالغة المستفادة من تكثير الهيئة والتنصل[1].

ومعنى الآية : أحرقتها ناراً متناهية فى الحر من حميت النار إذا اشتد حرها .

وذكر الاحتراق بالنار يخطر فى الذهن تطلب إطفاء حرارتها بالشراب فجعل شرابهم .

من عين آنية : فقال تسقى من عين آنية ، بلغت إناها أى غايتها فى الحر كقوله تعالى « حميم آن »[2] وأناها بفتح الهمزة والمد وبالكسر والقصر بمعنى الغاية ووزن آنية هنا فاعلة ، وأما آنية من قوله تعالى « يطاف عليهم بآنية من فضة » فجمع إناء كوعاء فوزنه أفعله .

وفى إعراب هذه الجملة يجوز أن تكون خبرا عن وجوه ويجوز أن تكون حالا من تصلى . وذكر السقى يخطر فى الذهن تطلب معرفة مايطعمونه فجىء به بعد ذلك .

---

(١) "الكشاف" ٤/٢٤٦ الدار العالمية بيروت

(٢) الإنسان ١٥ راجع حاشية الشهاب - عناية القاضى ٨/٣٥٣ ط الأميرية

لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ (٦) لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ (٧)

ليس لهم طعام : هذه الجملة خبر سادس عن وجوه باعتبار تأويله بأصحاب الوجوه ، وهى بيان لطعامهم إثر بيان شرابهم (١)

والضريع : يبس الشبرق وهو نبات تأكله الإبل رطبا فإذا يبس تركته قال امرؤ القيس :

فأتبعتهم طرفى وقد حال دونهم غوارب رمل ذى ألاء وشبرق

وقال الآخر فى ذم من لاينفع شابا ولاشيخا :

شهاب لمن ذاقه بشبرق وشيب يحاكى ضريع الهوادى

وقيل : الضريع يبس العرفج إذا تحطم ، وقال الخليل : نبت أخضر منتن الريح يرمى به البحر .

وهذه الآية وقف عندها بعض المعترضين وألبس عليهم فى فهم آيات القرآن حيث قالوا إن بعض الآيات متعارضة ، فهذه الآية تبين أن الطعام محصور فى الضريع وفى آية أخرى « فليس له اليوم هاهنا حميم » ، ولا طعام إلا من غسلين »(٢)

وإزالة لهذا اللبس والغموض قال أهل النظر والفكر : إن النار دركات (٣) ، والجنة درجات وعلى قدر الذنوب والحسنات تقع العقوبات

---

(١) تفسير أبى السعود ٩/١٤٩ الكشاف ٤/٢٤٦

(٢) الحاقة ٢٥ ، ٢٦

(٣) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص ٦٨ تحقيق السيد أحمد صقر دار الكتب

والمثوبات ، فمن أهل النار من طعامه الزقوم ، ومنهم من طعامه غسلين ، ومنهم من شرابه الحميم ومنهم من شرابه الصديد .

والزقوم عبارة عن أطعمة كريهة فى النار ، والغسلين : غسالة أبدان الكفار فى النار (١) .

والحميم : الماء الشديدة الحرارة ، والصديد : ماحال بين اللحم والجلد من القيح وضرب مثلا لمطعم أهل النار وهذا نحو قوله تعالى : « شرابهم من قطران »(٢) .

والقطران : هو مايتحلب من شجر يسمى الأبهل فيطبخ فتهنأ به الإبل الجربى فيحرق الجرب بحره وحدته الجلد وقد تبلغ حرارته الجوف ، وهو أسود اللون منتن الريح فتطلى به جلود أهل النار حتى يعود طلاؤه لهم كالسرابيل وهى القمص لتجتمع عليهم الأربع ، لذع القطران وحرقته وإسراع النار فى جلودهم واللون الوحش ، ونتن الريح (٣)

وقرأ ابن عباس وأبو هريرة وعكرمة (من قطرآن) والقطر : النحاس أو الصفر المذاب والآن : الذى قد بلغ منتهى حره .

وفى قول المعترضين ، كيف يكون فى النار نبت وشجر ، والنار تأكلهما ؟

يقول ابن قتيبة مجيبا ، إن الضريع من أقوات الأنعام لامن أقوات

---

(١) المفردات فى غريب القرآن ماده غـ ـل وحم جدد

(٢) ابراهيم ٥٠ الكشاف ٣/٣٨٤ الزمخشرى الدار العالمية لبنان

(٣) الكشاف ٣/٣٨٤ الزمخشرى لبنان

الناس ، وإذا وقعت فيه الإبل لم تشبع وهلكت هزلا(١)

قال الهذلى : يذكر إبلا وسوء مرعاها فهى شديدة الهزال لاتدر لبنا

وحبسن فى هزم الضريع فكلها حدباء دامية اليدين حرود

فأراد أن هؤلاء قوم يقتاتون مالايشبعهم ، وضرب الضريع لهم مثلا . أو يعذبون بالجوع كما يعذب من قوته الضريع ، وهذا الأمر معلوم عندهم ولو لم يكن كذلك لأنكروه كما أنكروا قوله « إنها شجرة تخرج فى أصل الجحيم ، طلعها كأنه رءوس الشياطين » (٢) . وقالوا : كيف تكون فى النار شجرة والنار تأكل الشجر ؟ فأنزل الله تعالى « وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس » (٣) والشجرة الملعونة فى القرآن : يعنى بالرؤيا: مارآه ليلة أسرى به وأخبر عنه ، فارتد لذلك قوم ، وزاد الله فى بصائر قوم ؛ وأراد بالشجرة الملعونة شجرة الزقوم .

وفى قصر الطعام على الضريع مجاز أو كناية فكأنه(٤) استعار الضريع لكل طعام مكروه حتى للإبل وغيرها من الحيوانات التى تلتذ رعى الشوك فلا ينافى كونه زقوما أو غسلينا أو على طريق الكناية ، أريد من الضريع لازم معناه وهو الطعام المكروه .

---

(١) انظر تأويل مشكل القرآن ص ٦٩ تحقيق السيد أحمد صقر

(٢) الصافات ٦٤ ، ٦٥

(٣) الإسراء ٦٠ تفسير غريب القرآن ص ٢٥٨ تحقيق السيد أحمد صقر دار الكتب بيروت

(٤) حاشية الشهاب ٨/٢٥٣ ط الاميرية بولاق

وقال صاحب الكشاف[١] إنه أريد أن لا طعام لهم أصلا لأن الضريع ليس بطعام للبهائم فضلا عن الناس ، كما يقال ليس لفلان ظل إلا الشمس أى لا ظل له فهو تعليق بالمحال أريد به النفى على آكد وجه من تأكيد إثبات الشيء بنفيه فيقدر الدخول للمبالغة فى النفى.

وعليه يحمل قوله تعالى : « ولا طعام إلا من غسلين »[٢] وقوله تعالى : « إن شجرة الزقوم طعام الأثيم »[٣]

وقال ابن قتيبة : قد يكون الضريع وشجرة الزقوم نبتين من النار ، أو من جوهر لا تأكله النار ، وكذلك سلاسل النار وأغلالها وأشكالها وعقاربها وحياتها لو كانت على ما نعلم لم تبق على النار ، وإنما دلنا الله سبحانه على الغائب عنده بالحاضر عندنا ، فالأسماء متفقة للدلالة ، والمعانى مختلفة[٤].

وعلى هذا التعبير يكون لفظ ضريع مستعار للشجر الذى فى النار ، فى عدم النفع والفائدة

ولفظ من للابتداء ليس لهم طعام إلا ما يشبه الضريع، وهو قصر الطعام على هذا بطريق النفى والاستثناء .

---

(١) الكشاف ٤/٢٤٦ للزمخشرى

(٢) الحاقة ٣٦ (٣) الدخان ٤٣ ، ٤٤

(٤) تأويل مشكل القرآن ص ٧٠ ط بيروت

(لا يسمن ولا يغنى من جوع)

هذه الجملة فى محل جر صفة لضريع [١] ومعناه أن طعامهم من شىء ليس من مطاعم الإنس ، وإنما هو شوك . والشوك مما ترعاه الإبل وتتولع به ، وهذا نوع منه تنفر عنه ولا تقربه . ومنفعتا الغذاء منتفيتان عنه وهى إماطة الجوع ، وإفادة القوة والسمن فى البدن .

ويجوز أن تكون الجملة فى محل رفع [٢] صفة لطعام المقدر إذ التقدير ليس لهم طعام إلا طعام من ضريع . ولا يجوز كونه صفة للمذكور إذ لا يدل حينئذ على أن طعامهم منحصر فى الضريع بل يدل على أن ما لا يسمن ولا يغنى من طعامهم منحصر فيه ويفسد المعنى

ويجوز أن تكون الجملة مستأنفة لا محل لها من الإعراب .

وذكر لفظ الجوع للتحقير والمهانة . أى لا يغنى من جوع ما وتأخير نفى الاغناء منه لمراعاة الفواصل والتوسل به إلى التضرع بنفى كلا الأمرين

وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ (٨) لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ (٩) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (١٠)

شروع فى حديث أهل الجنة وحكاية حسن حال الجنة بعد حكاية سوء أحل النار مما يزيد المحكى حسنا وبهجة

وإعراب وجوه مبتدأ ، وجوز الابتداء بالنكرة للتفصيل والتنويع . وناعمة خبرها

وأراد بالوجوه أصحابها ، فهو مجاز مرسل أطلق الجزء وأراد الكل

---

(١) انظر الكشاف للزمخشرى ٤/٢٤٦ الدار العالمية بيروت

(٢) البحر المحيط لأبى حيان ٨/٤٦٣ دار الفكر

روح المعانى للالوسى ٣٠/١١٣

وجاءت هذه الجملة مفصولة عما قبلها ، للتنبيه على أن المقصود من الاستفهام فى قوله تعالى(هل أتاك حديث الغاشية)[١] الاعلام بحال المعرض بتهديدهم وهم أصحاب الوجوه الذليلة فلما تم ذلك الاعلام بجملة وجوه يومئذ خاشعة ... إلى آخرها .. علم المقصود.

فجاءت الجملة مفصولة لأنها جعلت استئنافا بيانيا جوابا عن سؤال مقدر ترسله الجملة السابقة هل من حديث الغاشية ما هو مغاير لهذا الهول ؟

ولهذا النظم صارت هذه الجملة بمنزلة الاستطراد والتتميم لإظهار الفرق بين حالى الفريقين ولتعقيب النذارة بالبشارة . فوقع هذه الجملة المستأنفة موقع الاعتراض ولا تنافى بينهما وذلك موجب انفصلها عما قبلها فالفصل للاستئناف أو لشبه كمال الاتصال

ويومئذ قدمت على متعلقه وهى ناعمة الاهتمام بذلك اليوم .

ناعمة : يجوز أن تكون مشتقة من نعم الشيء صار ناعما لينا . فكنى بها[٢] عن البهجة وحسن المنظر أى وجوه ذات بهجة وحسن كقوله تعالى (تعرف فى وجوههم نضرة النعيم)[٣] ويجوز أن تكون مشتقة من نعم ينعم صار ذا نعمة فوجوه متنعمة .

لسعيها راضية :

السعى : المشى السريع وهو دون العدو ، ويستعمل للجد فى الأمر خيرا كان أو شرا

---

(١) حاشية الشهاب على البيضاوي ٣/٢٥٢ ، تفسير أبو السعود ٩/١٥٠

(٢) حاشية الشهاب عناية القاضى ٨/٣٥٢

(٣) المطففين ٢٤

وأكثر ما يستعمل السعى فى الأفعال المحمودة . والسعى هنا العمل الذى يسعاه المرء ليستفيد منه (١)

وفى هذا النظم مقابل قوله عاملة فى الصنف الآخر

والرضى : ضد السخط فهى حامدة ما قدمته فى الدنيا من خير لأعمال وتستمتع بهذا الشعور الروحى شعور الرضى عن عملها حين ترى رضى الله عنها .

والجار والمجرور .. لسعيها .. متعلق براضية والتقديم للاعتناء مع رعاية الفاصلة .

ورضاها به كناية ايجاز مرسل عن أنه محمود العاقبة مجاز عليه أعظم الجزاء وأحسنه .

وقيل فى الكلام مضاف مقدر أى لثواب سعيها راضية .

ويتصل هذا النظم بألوان من السعادة فى النعيم الدائم فى الجنة وما تحمله من رخاء ومتاع وما تثمره من كل مطاعم الحياة ، فقال (فى جنة عالية)

والجنة : كل بستان ذى شجر يستر بأشجاره الأرض :(لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية جنتان)(٢) . وسميت الجنة إما تشبيهاً بالجنة فى الأرض وإن كان بينهما بون ، وإما لستره نعمها عنا المشار إليها بقوله تعالى (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين)(٣)

---

(١) المفردات فى غريب القرآن مادة سعى ، ورضى ، جنة

(٢) سبأ ١٥

(٣) السجدة ١٧

وزيادة فى التكريم وصف الجنة بأنها عالية والعلو حسى ومعنوى فالحسى من ناحية الارتفاع والتمتع بالمناخ المناسب لأن الشجر فيها يكون أزلى وأحسن ثمرا كقوله تعالى « كمثل جنة بربوة » (١) فذلك يزيد حسن باطنها بحسن ما يشاهده الناظر فيها من مناظر ، وهذه الجنة رفيعة المحل . فهى عالية الدرجات ، عالية المقامات .

لاتَسْمَعُ فِيهَا لاغِيَةً (١١)

لاغية من لغا : اللغو من الكلام ما لا يعتد به وهو الذى يورد لا عن روية وفكر فيجرى مجرى اللغا وهو صوت العصافير ونحوها من الطيور ، وقد يسمى كل كلام قبيح لغوا (٢) .

قال تعالى : (لا يسمعون فيها لغوا ولا كذابا) (٣) وقال (والذين هم عن اللغو معرضون) (٤)

ويستعمل اللغو فيما لا يعتد به ومنه اللغو فى الأيمان أى ما لا عقد عليه .

ولاغية : بمعنى اللغو فجعل اسم الفاعل وصفا للكلام مثل كاذبة .

ويجوز كونها صفة كلمة محذوفة أى كلمة ذات لغو على النسب والإسناد مجاز عقلى لأن الكلمة ملغو بها واللاغى صاحبها . فالعلاقة المفعولية .

ويجوز أن تكون صفة نفس محذوفة ، أى لا تسمع فيها نفسا لاغية . وجعلها مسموعة لوصفها بما تسمع كما تقول : سمعت محمداً يقول كذا .

---

(١) البقره ٢٦٥ (٢) المفردات ماده لغا ص ٤٥١
(٣) النبأ ٣٥ (٤) المؤمنون ٣

ويجوز أن يكون ذلك على المجاز فى الإسناد

ولا تسمع : بفتح التاء ونصب لاغية ... كانت التاء للخطاب فالخطاب لكل من يصلح للخطاب • أو هو مسند إلى ضمير الغائبة المؤنثة على أن الضمير للوجوه والمراد أصحابها أو الإسناد مجازى (١)

ويجوز أن يكون فى النظم الاستخدام . لأن المراد أولا حقيقتها وعند إرجاع الضمير إليها ثانيا أصحابها فهم الذين لا يسمعون .

وجملة لا تسمع فيها لاغية صفة ثانية لجنة بعد وصفها بالعلو الحسى والمعنوى وإتباع هذه الصفة بصفة تفيض سكونا وهدوءا وسلاما وأمانا وودا ورضا •

بعيدة عن الصخب والهرج والمرج ، فالجنة دار سعادة دائمة دار صفت وتخلصت من النقائص وارتقت إلى السمو الخلقى والشفافية الروحية .

وقرىء بضم التاء ورفع لاغية تسمع .. لاغيـة وبنى الفعل يسم فاعله •

وذكر اللاغية لوجهين : أحدهما أنه أراد باللاغية اللغو وهو مذكر الثانى أنه فصل بين الفعل والفاعل كقولك حسن اليوم دارك وكقولهم حضر القاضى اليوم امرأة • وإذا جاز التذكير مع المؤنث الحقيقى فمع غير الحقيقى أولى .

---

(١) عناية القاضى ٨/٣٥٣ روح المعانى ٣/١١٥

وقرىء بالياء التحتية وبناء الفعل للمفعول

فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ (١٢)

العين: الجارحة المعروفة[١] (وأعينهم تفيض من الدمع)[٢] ويقال للذى العين عين ويستعار العين لمعان هى موجودة فى الجارحة بنظرات مختلفة ، استعير للثقب فى المزادة تشبيها بها فى الهيئة وفى سيلان الماء منها فاشتق منها سقاه عين ، ومعين إذا سال منها الماء .

وقيل للمتجسس عين : تشبيها بها فى نظرها ، وقيل للذهب عين تشبيها بها فى كونها أفضل الجواهر كما أن الجارحة أفضل الجوارح .

ويقال لمنبع الماء عين تشبيها بها لما فيها من الماء ، ومن عين الماء اشتق ماء معين أى ظاهر للعيون ، وعيِّن أى سائل . قال : « عينا فيها تسمى سلسبيلا »[٣] « وفجرنا الأرض عيونا »[٤]

والعين الجارية : الينبوع المتدفق وهو يضم إلى الرى جمال الحركة والجريان[٥]

والماء الجارى يجاوب الحس بالحيوية ، وبالروح التى تنقبض وتنبض ، هو متعة للنظر والنفس من هذا الجانب الحى الذي يتسرب إلى أعماق الحس .

---

(١) المفردات فى غريب القرآن ماده عين ص ٣٥٥

(٢) التوبة ٩٢ (٣) الانسان ١٨

(٤) القمر ١٢

(٥) انظر فى ظلال القرآن ٦/٣٣٩٣

وهذه الآية صفة ثالثة لجنة ، وقد استكملت الجنة محاسن الجنات قال عز وجل « أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا » (١)

وجريان الماء وعدم انقطاعه إما من وصف العين لأنها الماء الجارى فوصفها بالجريان يدل على المبالغة كما فى قوله تعالى (نار حامية) (٢) وهذا ما يميل إليه الخفاجى .

كأن التدفق من المنبع وهو أقوى فى الاستمرارية . وإما من اسم الفاعل فإنه للاستمرار بقرينة المقام وفى تنكير عين للتعظيم أو للتكثير كما قال الزمخشرى كما فى قوله تعالى (علمت نفس) (٣) أى عيون كثيرة تجرى مياهها .

وقيل فى فصل هذه الجملة عن التى قبلها لاختلافهما بالفعلية فالأولى والاسمية فى الثانية (٤)

وجملة لا تسمع فيها لاغية مقصود بها التنزه عن النقائص ، وجملة فيها عين جارية مقصود بها إثبات بعض محاسنها ، ويجوز فى سر الفصل وعدم الوصل الظاهرى لمجىء هذه الجمل على نمط التعديد لاظهار (٥) هذه

---

(١) الإسراء ٩١ (٢) القارعة ١١

(٣) التكوير ١٤ ، الكشاف ٤/٢٤٧ ط الدار العالمية بيروت ، حاشية الشهاب ٨/٣٥٤

(٤) تفسير التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٣/٣٠١ دار تونس النشر

(٥) الكشاف ٤/٤٧ الزمخشرى

النعم كما تقول : محمد أغناك بعد فقر ، أعزك بعد ذلة وهو الأوجه هنا .

فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ (١٣) وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ (١٤)

السرير : الذى يجلس عليه من السرور إذ كان ذلك لأولى النعمة وجمعه أسرة وسرر.

الكوب : قدح لا عروة له وجمعه أكواب (١)

هذا وصف لمحاسن الجنة بمحاسن أثاثها وتفصيل هذا الأثاث وما فيه من جمال .

ففى الجنة سرر رفيعة السمك رفيعة القدر تجمع بين العلو الحسى والعلو المعنوى .

والارتفاع يومىء إلى النظافة والطهارة ، وأكواب مهيأة بين أيديهم للشراب ، لا تحتاج إلى طلب ولا إعداد .

أعاد الظرفية بقوله فيها لأنها الجامع بين هذه المحاسن فى الجنة ، ولم يأت بواو العطف بقوله وفيها سرر مرفوعة ، للاشارة إلى أنها الجامعة لهذه الصفات .

وعطف المفردات على بعضها لأنها أجزاء متماثلة فى أنها من متاع المساكن الفائقة ، متغايرة فى وظائفها

والمقابلة بين مرفوعة (٢) و (موضوعة) إبهام الطباق لأن حقيقة معنى

---

(١) المفردات للراغب مادة سرر ومادة كوب ص ٢٢٨ ، ٤٤٣

(٢) تفسير التحرير والتنوير ٣/٣٠٢

الرفع ضد حقيقة معنى الوضع ؛ ولا تضاد بين مجاز الأول وحقيقة الثانى ولكنه إيهام التضاد .

وفى تواطؤ الفاصلتين على حرف واحد (١) جاء قوله تعالى فيها سرر مرفوعة وأكواب موضوعة » وهو من السجع المتوازى

وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ (١٥) وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ (١٦)

دقائق لغوية :

نمارق (٢) : جمع نمرقة بضم النون وضم الراء ، وبفتح النون وفتح الراء وبكسرها وهى المساند جمع مسند يتكىء عليها الجالس والمضطجع ، قال الشاعر :

كهولا وشبانا حسانا وجوههم على سرر مصفوفة ونمارق

مصفوفة : الصف أن تجعل الشىء على خط مستو كالناس والحجارة وصففت كذا جعلته على صف ، وصففت اللحم ، قددته وألقيته صفا واحدا (٣) .

والصفيف اللحم المصفوف ، والصفصف . المستوى من الأرض كأنه على صف واحد . زرابى ، الزرابى جمع زربى . وهو ضرب من الثياب محبر منسوب إلى موضع ثم استعيرت للبسط .

---

(١) انظر الايضاح للخطيب ص ٣٩٨ ط السنة المحمدية

(٢) انظر لسان العرب مادة نمرق

(٣) انظر المفردات فى غريب القرآن مادة صف ذرب بتى

وقال الفراء[1] هى الطنافس التى لها خمل رقيق .

وقيل جمع زربية وهى مثلثة الزاى ، والزرب والزريبة ، موضع الغنم مبثوثة : أصل البث : التفريق وإثارة الشىء كبعث الريح التراب ، وبث النفس ماانطوت عليه من الغم والسر ، يقال بثثته فانبث .

هذه نعم الله على عباده المقربين الذين آثروا الحياة الدائمة على الحياة الفانية يشبه لهم المناعم بأشباهها فى الأرض تقريبا إلى مدارك أهل الأرض بأن هيأ لهم وسائد وحشايا للاتكاء فى ارتياح ، صف بعضها إلى بعض حيثما أراد أن يجلس المؤمن جلس على واحدة واستند إلى أخرى ، وعلى رأسه وصائف كأنهن الياقوت والمرجان .

وهذه الثياب المحبرة الفاخرة استعيرت وجعلت بسطا وطنافس لأهل النعيم فى الجنان ، كثيرة مفرقة فى المجالس .

يروى الإمام السيوطى قال أخرج ابن أبى شيبة عن عبد الله بن أبى الهذيل أن موسى وغيره من الأنبياء قال : يارب كيف يكون هذا منك ؟ أوليـاؤك فى الأرض خائفون يقتلون ، ويطلبون فلا يعطون ، وأعداؤك يأكلون ماشاءوا ، ويشربون ماشاءوا ونحو هذا فقالوا انطلقوا بعبدى إلى الجنة فينظر مالم ير مثله قط ، إلى أكواب موضوعة ، ونمارق مصفوفة . وزرابى مبثوثة . وإلى الحور العين وإلى الثمار ، وإلى الخدم كأنهم لؤلؤ مكنون فقال : ماضر أوليائى ما أصابهم من الدنيا إذا كان

---

(١) معانى القرآن ٣/٢٥٨ الهيئة العامة للكتاب

مصيرهم إلى هذا ؟ ثم قال انطلقوا بعهدى هذا فانطلق به إلى النار فخرج منها عنق فصعق العهد ثم أفاق فقال : مانفع أعدائى ما أعطيتهم من الدنيا إذا كان مصيرهم إلى هذا قال لاشىء (٢) .

وقد قوبلت صفات وجوه أهل النار بصفات وجوه أهل الجنة فقوبلت صفات خاشعة عاملة ناصبة ، بصفات . ناعمة لسعيها راضية .

وقوبل قوله: «تصلى نارا حامية» ، بقوله «هو فى جنات عالية» وقوبل تسقى من عين آنية بقوله فيها عين جارية وقوبل شقاء عيش أهل النار التى صرح به فى قوله ليس لهم طعام إلا من ضريع ، لايسمن ولايغنى من جوع (٢) بمقاعد أهل الجنة فيها سرر مرفوعة ، وأكواب موضوعة ونمارق مصفوفة ، وزرابى مبثوثة هذا إلى جانب ماجمعت الآيات من سجع طبعى يتطلبه المقام ... خاشعة ناصبة حامية ناعمة ، راضيه ، عالية ، لاغية ، جارية مرفوعة موضوعة ، ونمارق مصفوفة ، وزرابى مبثوثة . وشرط حسن السجع اختلاف فى المعنى

---

(١) الدر المنثور فى التفسير المأثور للامام عبد الرحمن جلال الدين السيوطى ٤٩٣/٨ دار الفكر

(٢) تفسير التحرير والتنوير للشيخ الطاهر بن عاشور ٣٠٣/٣ ط تونس

وأحسن السجع ماتساوت قرائنه كما فى قوله تعالى « وأكواب مصفوفة ، وزرابى مبثوثة » .

أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ(١٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ(١٨) وَإِلَى الجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ(١٩) وإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ(٢٠)

دقائق لغوية :

ينظرون : النظر تقليب البصر والبصيرة لإدراك الشيء ورؤيته وقد يراد به التأمل والفحص ، وقد يراد به المعرفة الحاصلة بعد الفحص .

وهو الروية ، يقال نظرت فلم تنظر ، أى لم تتأمل ولم تتروّ . واستعمال النظر فى البصر أكثر عند العامة ، وفى البصيرة أكثر عند الخاصة .

الإبل : لاواحد له من لفظه يقع على البعران الكثيرة (١) وهو مؤنث وإذا صغر دخلته التاء فقالوا أبيلة(٢)

انتهى نظم الآيات السابقة بحديثها عن أمر القيامة وانقسام أهلها إلى أشقياء وسعداء .

وعلم أنه لاسبيل إلى ذلك إلا بواسطة الخالق الحكيم ، أتبع ذلك وبالنظر إلى هذا الوجود الظاهر الحاضر ، الدال على قدرة القادر ، وتدبير المدبر

---

(١) المفردات فى غريب القرآن مادة نظر ، ومادة إبل

(٢) الايضاح للخطيب القزوينى ص ٣١٤ ط السنة المحمدية

وتحيز الصفة وتفرد الطابع المبين على أن وراء التقدير والخلق أمرا بعد هذه الحياة ، وشأنا غير شأن الأرض وخاتمة غير خاتمة الموت .

تجمع هذا النظم الكريم أطراف بيئة العربي المخاطب[1] بهذا القرآن أول مرة ، كما تلفت أطراف الخلائق الظاهرة في الكون كله حين تحوى السماء والأرض والجبال و لجمال في الحيوان خاصة في خلق الإبل وفي قيمتها للعربي .

روى الإمام أحمد قال حدثنا هاشم بن القاسم حدثنا سليمان بن[2] المغيرة عن ثابت عن أنس قال كنا نهينا أن نسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن شيء فكان يعجبنا أن يجيء الرجل من أهل البادية العاقل فيسأله ونحن نسمع فجاء رجل من أهل البادية فقال يا محمد إنه أتانا رسولك فزعم لنا أنك تزعم أن الله أرسلك ؟ قال : صدق .

قال فمن خلق السماء ؟ قال الله ؛ قال : فمن خلق الأرض ؟ قال الله قال فمن نصب هذه الجبال وجعل فيها ماجعل ؟ قال الله ، قال فبالذى خلق السماء و الأرض ونصب هذه الجبال آلله أرسلك ؟ قال نعم : قال وزعم رسولك أن علينا زكاة في أموالنا ؟ قال صدق ، قال فبالذى أرسلك آلله أمرك بهذا؟ قال نعم قال وزعم رسولك أن علينا حج البيت من استطاع إليه سبيلا ،

---

(١) انظر البحر المحيط لأبي حيان ٤٦٤/٨ في ظلال القرآن للشهيد سيد قطب ٣١٩٨/٦ دار الشروق

(٢) تفسير ابن كثير ٥٠٥/٤ دار الكتاب المصرى - روح المعاني ١١٦/٣٠

قال صدق قال : ثم ولى فقال : والذى بعثك بالحق لاأزيد عليهن شيئاً ولا أنقص منهن شيئاً فقال النبي صلى الله عليه وسلم إن صدق ليدخلن الجنة (١).

أفلا ينظرون : استئناف مسوق لتقرير مافصل من حديث الغاشية مصدراً الاستفهام الدال على الانكار والتوبيخ متبعا الفاء المعطوفة على مقدر يقتضيه المقام .

أينكرون ما أشير إليه من البعث وأحكامه ويستبعدون وقوعه من قدرة الله عز وجل فلا ينظرون إلى الإبل نظر اعتبار وتأمل والتعبير بإلى الدال على انتهاء الغاية إلى المكان للفائدة واستقامة الكلام ، والتعبير بقوله تعالى كيف خلقت ليس المراد مجرد الإبصار وكيف قدمت على خلقت لصدارتها وهى تدل على التعجب ، خلقت الإبل خلقا بديعا(٢) .

دالا على كمال قدرته وحسن تدبيره ، حيث خلقها لإيصال الأثقال إلى البلاد النائية فجعلها عظيمة باركة للحمل ناهضه بالحمل ، منقادة لمن أقادها ، طوال الأعناق لتنوء بالأوقار وهى الأحمال الثقال وطرل عنقها مع عظم رأسها معين لها على القيام بعد التحميل بالحمل الثقيل فإنها كالقبان المعادل برمانته للأوزان الثقيلة .

وعن الحسن أنها خصت بالذكر لأنها تأكل النوى والقت وتخرج

---

(١) الحديث فى فتح البارى ١/١٥١ ط دار المعرفة - صحيح مسلم ١/٣٢

(٢) حاشية الشهاب ٨/٢٥٤ - تفسير التحرير ٣٠/٢٠٤

اللبن ، وتتحمل العطش إلى عشر بكسر العين وهو الظمأ بين الوردين إذا كان ثمانية أيام فصاعدا ليتأتى لها قطع البرارى والمفاوز ، ومنها يأكل اللحم ويشرب اللبن ويلبس من أوبارها[١]

وفى تأثرها بالصوت الحسن على غلظ أكبادها ، ولكونها أفضل ماعند العرب جعلوها دية القتلى ، ووهبوا المائة منها من يقصدهم ومن أرادوا إكرامه .

ولذلك خصت بالذكر لبيان الآيات المنبثة فى الحيوانات التى هى أشرف المركبات وأكثرها صنعا ، وقد أبان تعالى إمتنانه فى قوله « أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما فهم لها مالكون »[٢]

وقال المبرد الإبل هنا السحاب وتأوله الزمخشرى[٣] بأنه لم يرد أن الإبل من أسماء السحاب ولكنه أراده من قبيل التشبيه والمجاز .

فاستعيرت الإبل للسحاب ؛ لأنها تأتى إرسالا كالإبل وتزجى كما تزجى الإبل وهى فى هيآتها أحيانا تشبه الإبل ، ولعله كما قال الزمخشرى لم يدع القائل بذلك إلا طلب المناسبة بين المتعاطفات على مايقتضيه قانون البلاغة .

وقد انتظمت هذه الآيات الأربع فى سلك متصل بواو العطف الجامعة بين هذا النظم ذلك لأن المناسبة الجامعة أن المخاطبين هم العرب وهم أهل أسفار على الإبل فى البرارى فربما انفردوا فيها والمنفرد يتفكر لعدم رفيق

---

(١) انظر حاشية الشهاب ٨/٢٥٤

(٢) يس ٧١

(٣) الكشاف ٤/٢٤٧

بحادثه وشاغل يشغله فيفكر فيما يقع عليه طرفه فإذا نظر لما معه رأى الإبل وإذا نظر لما فوقه رأى السماء وإذا نظر يمينا وشمالا رأى الجبال وإذا نظر لأسفل رأى الأرض فأمر بالنظر فى خلوته لما يتعلق به النظر من هذه الأمور فهيئها مناسبة بهذا الاعتبار وكل المخلوقات دالة على الصانع مأمور بالنظر فيها .

لكن فيها ما يشتهى كالوجوه الحسان وما يرغب فيه ويميل له الطبع كالذهب والفضة وغيرهما : فلو أمر بالنظر فيها أو فيما يشملها لشغلته الشهوة والميل الطبيعى عن الانتقال منها إلى المراد فأمر بالنظر فيما ذكر لكونه حاضرا معهم . ولا يشتغل به ناظره عما أراد وجميع ما ذكر من المخلوقات العظيمة المحتاجة للصانع الدالة عليه دلالة ظاهرة .

وقال عصام الدين : إن خيال العرب جامع بين الأربعة لأن مالهم النفيس الإبل ومدار[1] السقي لهم على السماء ، ورعيهم فى الأرض ، وحفظ مالهم بالجبال .

وما ألطف ذكر الإبل بعد ذكر الضريع فإن خطورها بعده على طرف التمام .

وهذا الجامع الخيالى هو ما سجله البلاغيون حول مزج الآيات وتعاطفها على بعضها لما فيها من المناسبة الظاهرة . وهذا ما استاقوه من المفسرين ولكنى وجدت من يعترض على هذا حيث قال صاحب الاشارات والتنبيهات

---

(١) روح المعانى للالوسى ١١٦/٣ دار إحياء التراث

معترضا على السكاكى - ما ذكره السكاكى من الجامع الخيالى لأهل الوبر . فما سبب تخصيص أهل الوبر دون المدر والقرآن نسبته إلى الكل سواء.

قال : والاشتراك حاصل فى الآية باعتبار كون الجميع مفيدا لوجوب النظر إلى عجيب آثار قدرة الله تعالى الدالة على وجود الموجود القادر العالم الحكيم وتخصيص الأربعة بالذكر لكونها أظهر عند الحس لأهل الظاهر من أهل الوبر والمدر جميعاً ، وإلا فعجائب آثار قدرة الله تعالى فى خلق الانسان أتم وأكثر فى نفس الأمر(١).

ولا وجه لصاحب الاشارات فى هذا الاعتراض وأن النظر والتأمل موجه إلى أهل الوبر وأهل المدر فى كل مكان وفى كل عصر . لأن القرآن معجز يتجدد بالتعبد والتلاوة والتطبيق بالكشف عن أسراره . لكن هذه الآيات والشواهد تحضر فى معايشة البدوى أكثر وإذا تأملها الحضرى كان تأمله أوعى لذلك قال السكاكى (٢) فقل لى إذا لم يوفه حقه من التيقظ وأنه من أهل المدر أنى يستجلى كلام رب العزة مع أهل الوبر حيث يبصرهم الدلائل .

ناسقا ذلك النسق « أفلا ينظرون .. الآيات » لبعد البعيد عن خياله :

---

(١) انظر الاشارات والتنبيهات فى علوم البلاغة محمد على الجرجانى تحقيق د/ عبد القادر حسين ٩٤-٩٥ طبعة مصر الفجالة

(٢) مفتاح العلوم ص ٢٥٧ - ٢٥٨ دار الكتب العلمية بيروت تعليق نعيم زرزور

لكن إذا وفاه حقه بتيقظه لما عليه بتقليبهم في حاجاتهم جاء الاستجلاء وتأييدا لذلك يروى صاحب الكشاف [1] عن سعيد بن جبير قال : لقيت شريحا القاضي فقلت : أين تريد ؟ قال : أريد الكناسة . قلت وما تصنع بها ؟ قال : أنظر إلى الإبل كيف خلقت ؟

ولزيادة التنبيه على إنكار هذا الاهمال قيد الفعل ينظرون بالكيفيات المعدودة في قوله كيف خلقت وكيف رفعت وكيف نصبت وكيف سطحت.

وكيف خلقت : جملة استفهامية في موضع البدل من الابل وينظرون تعدى إلى الإبل بواسطة إلى ، وإلى كيف خلقت على سبيل التعليق وقد تبدل الجملة وفيها الاستفهام من الاسم الذى قبلها [2].

وإلى السماء كيف رفعت ؟ يقترن النظر إلى رفع السماء بالنظر إلى خلق الابل .

وكان العرب أولى بهذا النظر لأنهم يغطون بالسماء في صحرائهم فللسماء عندهم طعم ومذاق مع تنوع جمالها الباهر فالسماء بنهارها الواضح الباهر الجاهر . وبأصيلها الفاتن الرائق الساحر وبغروبها البديع الفريد وبليلها المتراصي ونجومها المتلألئة وبشروقها الجميل الحي الساحر .

أفلا ينظرون إلى هذه السماء ؟ من ذا رفعها بلا عمد ؟ ونثر فيها النجوم بلا حدد ؟

---

(١) الكشاف ٤/٢٤٧ الدار العالمية بيروت

(٢) البحر المحيط ٨/٤٦٤ دار الفكر بيروت

أنهم لم يرفعوها وهى لم ترفع نفسها . فلا بد لها من رافع ولا بد لهما من مبدع فالنظرة الدقيقة كافية ومبرهنة على خالق هذا المخلوق .

وإلى الجبال كيف نصبت ؟ وترتبط الجبال بالسماء ويتقابلان فى الشموخ والعلو .

الجبال عند العربى - بصفة خاصة - مسكن وملاذ ، وأنيس وجليس ، ومنظرها يومىء إلى النفس البشرية بصفة عامة جلالا واستهوالا ؛ حيث يصغر الانسان إلى جوارها و يستسكن ، ويخشع للجلال السامق الرزين ، والنفس فى أحضان السكون[1] تتجه بطبيعتها إلى الله وتحس أنها إليه أقرب فالجبال منازلهم ولم يكن عبثاً ولا مصادفة أن يبحث الرسول محمد صلى الله عليه وسلم فى غار حراء فى جبل ثور .

كيف نصبت ؟ رفعت رفعاً سامقاً ووضعت وضعاً ثابتاً فلا تميل ولا تميل .

وإلى الأرض كيف سطحت ؟ يربط النظر إلى الجبال بالنظر إلى الأرض التى تستقر عليها الجبال .

والأرض تحت الأقدام ومنها وإليها يعود الانسان وهى مأواه حيا ومهاداً وهى ذلول للانسان .

كيف سطحت سطحاً يتوطنه وتمهد وتسوية وتوطيد حسبما يقتضيه صلاح[2] أمور أهلها .

---

(١) انظر فى ظلال القرآن ٦/٣٨٩٩ دار الشروق للشهيد سيد قطب

(٢) حاشية الشهاب ٨/٣٥٤ تفسير التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٣٠/٢٠٦

أفلا ينظرون إليها ويتدبرون ما وراءها ويسألون من سطحها ومهدها؟

إن هذه المناظر لتأخذ بالقلب إلى الاعتراف باليقين الصادق والايمان الدائم ونطق الجوامد بأنه الاله المعبود :

وفى كل شيء له آية تدل على أنه الواحد

وقرأ على كرم الله وجهه وأبو حيوه وابن أبى عبلة ، خلقت رفعت ، نصبت ، سطحت بتاء المتكلم مبنيا للفاعل والمفعول ضمير محذوف وهو العائد إلى المبدل منه بدل اشتمال أى خلقتها رفعتها نصبتها سطحتها . وقرأ الحسن وهرون الرشيد سطحت بتشديد الطاء .

فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ (٢١) لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ (٢٢)

إلتفات إلى الرسول صلى الله عليه وسلم بعد الحديث عن أهوال الغاشية وما فيها ، والحديث عن مظاهر الكون المعرضة ، يوجه القرآن الحديث إلى الرسول وطبيعة وظيفته إشفاقا عليه :

وظيفتك التذكير ذكر بهذا وذاك ذكرهم بالآخرة وما فيها، ذكرهم بالكون وما فيه .

هذه رسالتك وهذا دورك فى هذه الدعوة (ما على الرسول إلا البلاغ)[1] لا تملك من أمر قلوبهم شيئا حتى تقهرها وتقصرها على الايمان ، فالقلوب فى قبضة الرحمن لا يقدر عليها إنسان.

فذكر: الفاء فصيحة تفريع على محصل ما سبق ، فاقتصر على التذكير

---

(١) المائدة ٩٩

فلا تلح عليهم والأمر مستعمل فى طلب الاستمرار والدوام ، والمفعول محذوف يدل عليه قوله لست عليهم بمسيطر . وجاءت الجملة الثانية إنما أنت مذكر مفصولة عن الأولى لكمال الانقطاع وهو كون الجملة الأولى ذكر إنشائية لفظا ومعنى والجملة الثانيه خبرية لفظا ومعنى وهى إنما أنت مذكر.

ويجوز أن يكون الفصل لشبه كمال الاتصال . أو ما يسمى الاستئناف البيانى .

وهو أن تكون الجملة الثانية بمنزلة الجواب عن سؤال تضمنته الجملة الأولى ... وهذا تعليل للأمر بالدوام على التذكير .

إنما أنت مذكر : أسلوب فيه قصر لطريق إنما المركبة من إن الدالة على التوكيد وما النافية ، والقصر هنا إضافى وهو ما كان النفى خاصا فقد قصرت الآيه الرسول عليه السلام على التذكير قصر موصوف على صفه ، أى أنت مذكر لست وكيلا على تحصيل[1] تذكيرهم فلا تتحرج من عدم تذكرهم فأنت غير مقصر فى تذكيرهم وهذا اطمئنان لنفسه الزكية الطاهرة . من قصر الإفراد . وقد جمعت الآية بين جناس الاشتقاق فى قوله فذكر ومذكر . وجمعت إنما فى نظمها النفى المتأخر فى قوله لست عليهم بمسيطر . وجاء الفصل فى جملة لست عليهم بمسيطر لأنها تأكيد معنوى لجملة إنما أنت مذكر . فلست بمتسلط عليهم

---

(١) انظر الكشاف ٤/٢٤٨ . روح المعانى للالوسى ٣٠/١١٧ ، الايضاح ص ١٥١ ، ١٢٣

تجبرهم على ما تريد كقوله (وما أنت عليهم بجبار)[1] والشيء لا يعطف على نفسه والفصل هنا لكمال الانصال .

ويجوز أن تكون الجملة الثانية بدل اشتمال من الأولى . وتقديم الجار والمجرور وهو عليهم على متعلقه وهو مسيطر للرعاية على الفاصلة.

وقرأ الجمهور بمصيطر بالصاد وكسر الطاء والأصل السين . والصاد بدل منه فإنه من السطر بمعنى التسلط يقال سطر عليه إذا تسلط وقرأ حمزة فى رواية بإشمام الصاد زايا وهرون بفتح الطاء وهى لغة تميم .

إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ (٢٣) فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ (٢٤)

قال ابن الأنبارى فى الآية الأولى[2] ـ إلا من تولى ـ فى موضع نصب لأنه استثناء من غير الجنس وقيل هو استثناء من الجنس وتقديره إنما أنت مذكر الناس إلا من تولى وكفر ، وقيل من فى موضع جر لأنه بدل من الضمير فى عليهم .

وقال الزمخشرى الانقطاع على معنى[3] لست بمستول عليهم لكن من تولى وكفر منهم فإن الله تعالى الولاية عليه والقهر فيعذبه فى نار جهنم .

ومَن : فى مَن تولى موصولة مبتدأ وما بعدها صلة وجملة فيعذبه الله هى

---

(١) ق ٤٥ تفسير التحرير والتنوير ٣٠/٣٠٧ ـ البحر المحيط ٨/٤٦٤

(٢) البيان فى غريب القرآن لابن الأنبارى ٢/٥١٠ ط الهيئة العامة للكتاب وانظر معانى القرآن للفراء ٣/٢٥٩

(٣) الكشاف ٤/٢٤٨

الخبر ودخلت الفاء فى الخبر فى فيعذبه الله . إذ كان الكلام استقدرا كما وكان المبتدأ موصولا فأشبه بموقعه وبعمومه الشرط فأدخلت الفاء فى جوابه وقيل ألا حرف تنبيه واستفتاح والعذاب الأكبر هو عذاب جهنم.

إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (٢٥) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ (٢٦)

تعليل لتعذيبه تعالى إياهم بالعذاب الأكبر وقد جاءت الجملة مفصولة عن سابقتها لأنها بمثابة جواب عن سؤال مقدر فى الأولى شبه كمال الاتصال أو الاستئناف البيانى .

وإياب مصدر آب أى رجع أى إن إلينا (١) رجوعهم بالموت والبعث لا إلى أحد سوانا .

والرجوع إلى المكان أطلق على المثول فى حضرة القدس يوم الحشر تشبيها له بالرجوع إلى المكان الذى خرج منه بملاحظة أن الله تعالى خالق للناس خلقهم الأول فشبهت إعادة خلقهم وإحضارهم لديه برجوع المسافر إلى مقره .

وتقديم الخبر وهو الجار والمجرور إلينا الدال على العظمة على المبتدأ مفيد للتخصيص أى إيابهم لا يكون إلا لله فقد قصر الأوبة عليه سبحانه لا إلى غيره وهو قصر صفة على موصوف .

وفى نقل الكلام من أسلوب الغيبة فى قوله عز وجل فيعذبه الله ، إلى أسلوب التكلم الدال على التعظيم على طريقة الالتفات الذى يدل على

---

(١) حاشية الشهاب ٨/٥٥ ؛ تفسير التحرير والتنوير ٣٠/٣٠٨ ط تونس

التفنين والتنشيط فى الكلام .

وقرأ أبو جعفر وشيبة إيابهم بالتشديد قال البطليوسى فى كتاب المثلثات[1] هذه القراءة تحتمل تأويلين أحدهما أن يكون فعالا وأصله إواب فلم يعتد بالواو الأولى حاجزا لضعفها بالسكون فأبدل من الواو الثانية ياء لإنكسار الهمزة فصار فى التقدير إو ياب ثم قلبت الواو الأولى ياء أيضا لاجتماع ياء وواو وسكون إحداهما ولأن الواو الأولى إذا لم تمنع من انقلاب الثانية فهى أجدر بالانقلاب ونظير ذلك عتى وعتى .

والثانى أن يكون فيالا وأصله إيوابا فأعل إعلال سيد وفعله على هذا أيب وأصله أيوب كما ذكرنا ، والأول أقيس لأنهم قالوا فى مصدره التأويب والتفعيل مصدر ، فعل لا فعيل ومع ذلك فقد قالوا هو سريع الأوبة والأيبة فكأنهم آثروا الياء لخفتها .

ثم إن علينا حسابهم . عطف هذه الجملة بحرف ثم التى تدل هنا على التراخى الرتبى فإن الترتيب الزمانى بين أيابهم وحسابهم لا بين كون إيابهم إليه تعالى وحسابهم عليه سبحانه فإنهما أمران مستمران وتقديم الخبر على المبتدأ لإفادة التخصيص به تعالى ليس حسابهم إلا على ملك مقتدر منتقم ؛ وفى تقدير الجملتين بإن وتقديم خبرها والآيتان بضمير العظمة[2] وعطف

---

(١) المثلث لابن السيد البطليوسى وزارة الثقافة دار الرشيد العراق البيان فى غريب إعراب القرآن لابن الأنبارى ٢/٥١٠ ، حاشية الشهاب ٨/٢٥٥ - ٢٥٦

(٢) تفسير أبى السعود إرشاد العقل السليم ٩/١٥٢ دار إحياء التراث روح المعانى ٣/١١٨

الثانية على الأولى ثم المفيدة لبعد منزلة الحساب فى الشدة من الأنباء عن غاية السخط الموجب لشديد العذاب « مالا يخفى »

اللهم قنا عذابك ، وخفف عنا حسابك ، رافعين أكف الضراعة ، متوسلين بقرآنك المستقيم ، ورسولك العظيم ... أن تجعل القرآن ربيع قلوبنا ، ونور أبصارنا وبصائرنا . بكرمك ورحمتك يا أرحم الراحمين

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

وصلى الله على النبى الكريم وعلى آله وصحبه وسلم

إعداد

الأستاذ الدكتور / أحمد عبد الجواد عكاشة

الأستاذ المساعد بقسم البلاغة والنقد بالكلية